

السلطة السياسية، القوة والأخلاق

بقلم بوقيير سلوى^(١)

يتفق العلماء على اعتبار القوة عنصر ضروري لكل سلطة، و اختلفوا في تحديد نوع القوة الذي يسمح بحيازة السلطة، أو الذي يسمح بالإستمرار في حيازتها. و يسعى الإنسان إلى الهيمنة على الآخرين بفضل إستعمال القوة - مهما كان نوعها-، و تدفعه إلى ذلك غريزة "حب السيطرة" (أ).

وفي كثير من الأحيان يستغل الإنسان القوة أو القوى التي يملكها لتحقيق أغراض لا أخلاقية، وتحمله رغبته الشديدة في الهيمنة على اتباع سلوك لا أخلاقي، واستعمال وسائل متنافية مع القيم والمبادئ الدينية أو الإنسانية، لأنه يرى أن الأخلاق ضعف، رغم أن الحقائق التاريخية و السياسية تؤكد أن الأخلاق والدين والرحمة تشكل قوى أدبية ومعنوية (ب).

أ- غريزة السيطرة :

حب الإنسان للسيطرة، وسعيه إلى التمتع بالسلطة غريزة كامنة في نفسه، ورغم أن جميع من ينتمي إلى الجنس البشري يحب السلطة، فلا يحوزها إلا الأقوياء منهم. ونعني "بالقوة" : كل أشكال القوى والنفوذ والتأثير، سواء كانت مادية، أو أدبية، أو إقتصادية، أو دينية... إلخ، مما يسمح للمرء أن يسيطر على إنسان آخر، أو أناس آخرين، ولذلك يعرف العلماء السلطة بأنها : " الحق أو إمكانية فرض الأوامر وفرض الإرادة"^(١).

وفي هذا الصدد، يعرف المعجم الفلسفي "القوة" بأنها : "1- القدرة، والشدة، والطاقة، وضدها الضعف، تقول قوة الجسم، وقوة الفكر، وقوة الغريزة.

2 - والقوة هي القهر المادي والخارجي، أو الضرورة التي لا تستطيع الإرادة مقاومتها، ومنه قولهم: إستولى على الشيء بالقوة، وخضع للقوة، والقوة بهذا المعنى

^(١) - أستاذة مساعدة في كلية العلوم القانونية و الإقتصادية بجامعة - عبد الرحمان ميرة - ببجاية.

^(١) - www.mediaport.net/magnum/pdm/mots/autorite.fr.html

مقابلة للحق، لأنها ليست حقاً وإنما هي وسيلة للدفاع عن الحق أو لمنع صاحب الحق من التمتع بحقه... أن القوة (Puissance) مصدر النشاط والحركة ومبدأ التغيير والفعل، وتنقسم إلى : طبيعية، وحيوية، وعقلية⁽¹⁾.

ولقد أكد العلماء أن الصراع بين الناس طبيعي و غريزة في الإنسان، إذ في أحيان كثيرة تتقاطع آراء و مواقف المرء مع غيره، أو مجتمع مع مجتمع آخر، فيقع التصادم بينهما، و يحاول كل واحد من الطرفين أن يهيمن على الآخر، و يفرض عليه إعتناق فكرته، فيقع الصراع بين الطرفين.

ويرى د/ "جوستاف لوبون" أن من أهم أسباب التنازع و الحروب بين الشعوب: الغريزة الطبيعية التي تحمل الأقوياء على القضاء على الضعفاء، فمتى أصبحت أمة ضعيفة تكون فريسة الأمم القوية المجاورة لها⁽²⁾.

وأشار الله سبحانه و تعالى إلى " الصراع"، و اعتبره في آيات عديدة سنة ثابتة في البشر، يقول الله سبحانه و تعالى :

« ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله... »

« و لو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض... »

« و لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، و لذلك خلقهم... »

« و اتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما و لم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك... »

« و إن كثيرا من الخلقاء ليبغي بعضهم على بعض... »

وتتجلى العلاقة بين "السلطة" و "القوة" في التعريف اللغوي للسلطة : " السلطة في اللغة القدرة والقوة على الشيء، والسلطان الذي يكون للإنسان على غيره... "⁽³⁾،

(1) - د/ جميل صليبا، "المعجم الفلسفي"، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص (203-201).

(2) - أحمد نوفل، " الحرب النفسية"، دار الشهاب، الجزائر، 1987، ص 27.

(3) - د/ جميل صليبا، "المعجم الفلسفي"، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص 670.

فمثلا تعرف الأرستوقراطية بتمتعها بمجموعة من القوى تميزها عن الجماعات الأخرى: " الأرستوقراطية حكومة طبقة إجتماعية معينة تمثل أقلية تمتاز على غيرها من الطبقات بثقافتها، أو فضائلها، أو حقها الوراثي... ويطلق لفظ الأرستوقراطية أيضا على كل طبقة إجتماعية تمتاز على غيرها ببعض الصفات، نقول أرستوقراطية المال، وأرستوقراطية العلم، أو الفن إلخ"⁽¹⁾.

نظرا لهذه العلاقة الوطيدة القائمة بين "السلطة" و"القوة" أكد العلماء أن السلطة تكون بأيدي الشخص الذي يعرف كيف يدافع عن بعض القيم الغالية السائدة في جماعة معينة⁽²⁾.

فبالإضافة إلى استعمال القوة المادية، تعتمد السلطة على "قوة الإقناع" أو "قوة النفوذ" لتنظيم حياة المجتمع، مما يضيفي عليها الشرعية، ويتم ذلك عندما تكون طاعة المحكوم للنظام السياسي القائم ناتجة عن إتساق السلطة مع مبادئه وقيمه وآماله، أي عندما تحقق السلطة المصلحة العامة⁽³⁾.

ولاشك أن كل المفكرين الذين حاولوا تفسير السلطة السياسية ركزوا في ذلك على هذه العلاقة القائمة بينها و القوة، فمنهم من منح السلطة للحاكم الذي يمتلك القوى، ومنهم من منحها لنخبة أو أقلية صاحبة قوة معينة أو قوى معينة تسمح لها بامتلاك السلطة. فيعتمد مثلا الماركسيون في نظريتهم على القوة الإقتصادية، رغم أنها لا تكفي وحدها لتبرير وتفسير السلطة السياسية، إذ توجد قوى أخرى تؤثر في بروز السلطة منها : الجيش، و رجال الدين، والنقابات، والتكنوقراطيين... إلخ، وليست الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج هي الحائزة للسلطة في كل الحالات.

وتقوم نظرية " ابن خلدون" على قوة " العصبية"، وليس صحيحا قيام كل الدول على العصبية القبلية، بل إن هذا الأساس ينطبق فقط على زمان ومكان محددين هما: المغرب العربي في القرون الوسطى. و ينبني تفسير " دوجي" للسلطة السياسية على

(1) - المصدر نفسه، ص 62.

(2) - Kamel HAMDİ, « l'art d'être chef », édition Rouibah, 1998, p 50

(3) - أحمد بهاء الدين، " شرعية السلطة في العالم العربي"، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، 1405هـ- 1985م، ص 13.

مجموعة من القوى: القوة المادية وقوة في الشخصية، أو في التأثير، أو في الحنكة السياسية، أو قوة أدبية أو فكرية.

وفسرت بعض النظريات السلطة على أساس "قوة العدد"، فمنحت السلطة العليا للشعب أو للأمة، ومنحت نظريات أخرى السلطة العليا للدولة على أساس "قوة القانون".

ب - قوة الأخلاق :

يتبين من خلال ما تقدم أن "القوة" عنصر ضروري لكل سلطة سياسية، فهي مثل الأوكسجين بالنسبة لها، سواء باعتبارها وسيلة للسيطرة، أو لديمومتها. ولعل ذلك ما يفسر كون أغلبية تماثيل "الأبطال" و"العظماء" في أوروبا هي تماثيل "غزاة" و"مستعمرين"، اعتبروا أبطالاً عند شعوبهم وبما أن الإستعمار هو استعمال للقوة بطرق لا أخلاقية تؤدي إلى قتل الأبرياء، و تدمير ممتلكاتهم ويخدم أغراض لا أخلاقية تكمن في تحقيق المصالح المادية للمستعمر، فهل يعني ذلك أنه لابد للسلطة السياسية القوية أن تكون بالضرورة لا أخلاقية ؟ وهل بإمكان السلطة الجمع بين القوة والأخلاق؟.

إن الغاية عند "ميكيافيلي" تبرر الوسيلة، و لتحقيق القوة و الوحدة لإيطاليا يطلب من الحاكم أن يضحى بالقواعد الدينية التي قد تمنعه من استعمال العنف، وينصح باستعمال الكيد والخداع مع التظاهر بالتدين و الأخلاق أمام المجتمع⁽¹⁾. ويتخذ الفيلسوف الألماني "نيتشه" نفس المبدأ القائم على "القوة"، فيحث الشعب الألماني إلى تشكيل قوة متسلطة على الشعوب الأخرى، دون الإهتمام بالأخلاق و الرحمة، لأنه لا مكان على وجه الأرض للضعفاء، ولا يظل فيها إلا الأقوياء⁽²⁾.

ومن خلال استقراء الأحداث الدولية، و تتبع الحياة السياسية بين الدول، ولاحظه العلاقات القائمة بين الحكام والمحكومين، يتبين أن فلسفة "ميكيافيلي" و"نيتشه" هي

(1) - Nicolas MACHIAVEL, « le prince suivi de l'histoires florentines », ENAG/édition, Algérie, 1989, p

(23-35), (103-106).

(2) - إدريس خضير، "التفكير الإجتماعي الخلدوني، و علاقته ببعض النظريات الإجتماعية"، الطبعة الثانية ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص 138.

السائدة في أغلب مناطق العالم، و تعتمد الدول المعاصرة على الأساليب غير المباشرة، فلا تقتصر على استعمال الأسلحة

والجيوش لضرب دولة ما أو مجتمع ما، بل تستعمل أسلحة أخرى خفية وشديدة الخطورة، يصفها أحد الصحفيين العرب الكبار : " إفساد الذمم والضمان وإشعال الفتن و التخريب من قبل جهات مجهولة، الإيقاع بين الإخوة والجيران، إشعال الحروب المحلية التي تخدم مصلحة دولة أجنبية"⁽¹⁾.

فمثلا ضرب الولايات المتحدة الأمريكية بيت سوكارنو بالقنابل، و محاولات دس السم لكاسترو و اغتيال لومومبا من قبل هذه الدولة، كما دبرت انقلابات دموية في دول عديدة مثل التشيلي، وسيادة الفساد مثل "ووترجيت"، و رشوة نائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، و رشوة رئيس وزراء اليابان وزوج ملكة هولندا وبعض الأحزاب في أوروبا، وإلقاء الرئيس الأمريكي "ترومان" القنبلة الذرية على هيروشيما، مما أدى إلى قتل مائة ألف شخص⁽²⁾. وغزو الولايات المتحدة الأمريكية للعراق، واتهامه باطلا بحيازة أسلحة الدمار الشامل لخدمة مصالحها في الشرق الأوسط، مما أشعل فتيل المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأمريكي.

ونرى أن الربط بين الضعف و الأخلاق، و بين القوة و السلوك اللاأخلاقي، مما يتنافى مع الحقائق السياسية و التاريخية للمجتمعات، إذ تشكل الأخلاق و الفضيلة والدين و الرحمة قوى معنوية و أدبية، تمنح للحاكم ثقة المحكومين و حبهم، فيكون الحاكم الفاضل قدوة لهم يقتدون بها في حياتهم فمثلا كان الخليفة "عمر بن الخطاب" - رضي الله عنه - عفيفا اتجاه مال الدولة، فدفع ذلك المسلمين إلى اتباع هذه الفضيلة، و كان الغيى الذي وصل من فارس كثيرا، فاحضره المسلمون للخليفة كاملا، فقال لمن حوله : " إن قوما أدوا هذا لأمناء"، فأجابه "علي بن أبي طالب" - رضي الله عنه - : " إنك عفتت فعفت راعيتك و لو رتعت لرتعت"⁽³⁾.

(1) - أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص 110.

(2) - المصدر نفسه، ص 211-217.

(3) - محمد عبد الرحمان عبد اللطيف، "عمر بن الخطاب و المعادلة الإنسانية"، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1988، ص 154.

ولقد أكد التاريخ أن الأخلاق قوة، وقد تتغلب "قوة الأخلاق" على القوى العسكرية والمادية إذ كانت الدولة الإسلامية في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - والخلفاء الراشدين قوية ومهابة وتمكنت من أن تهزم أعظم وأقوى دولتين قائمتين في ذلك العصر هما: الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية، و تم لها ذلك بفضل أخلاق المسلمين، وإيمانهم العميق بمبادئ الشريعة الإسلامية السمحاء، وسيادة روح التسامح والأخوة والتعاون بين أفراد الأمة الإسلامية، وتعاملهم مع الشعوب الأخرى القائم على أساس الرحمة. لم يسري الضعف والإضمحلال في كيان الدولة الإسلامية إلا بعد أن تراجعت قيمها ومبادئها، و تخلت عن روح الشريعة الإسلامية، فكانت قوتها كامنة في أخلاقها، وستسترد الأولى حينما تعود إلى الثانية.

وكان الفاتحون المسلمون يتركون للناس حرية ممارسة عقائدهم وشعائهم مقابل أن يدفعوا جزية ضئيلة، وأنقذت الفتوحات الإسلامية الشعوب التي كانت تعاني استبداد الدول العظمى، وفي هذا الصدد قال الكاتب الفرنسي "أناتول فرانس": " إن أهم تاريخ في حياة فرنسا هو معركة بواتييه سنة 732 ميلادية، حين هزم شارل مارتل جيوش الوالي عبد الرحمان، ففي ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربية أمام البربرية الأوروبية"⁽¹⁾.

وعن عدالة الخلفاء الراشدين نذكر المثال التالي : يقول جعد بن هبيرة لأمير المؤمنين "علي بن أبي طالب": " يا أمير المؤمنين، يأتيك الرجلان، أنت أحب إلى أحدهما من أهله و ماله، والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضي لهذا على هذا! قال: فلهزه علي وقال: " إن هذا شيء لو كان لي لفعلت، و لكن إنما ذلك شيء لله"⁽²⁾.

والآيات القرآنية التي تحمل بعدا أخلاقيا و إنسانيا عديدة نذكر منها:

« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم»⁽³⁾.

(1) - أحمد بهاء الدين، المرجع السابق، ص 119-165..

(2) - د/يوسف القرضاوي، "الإيمان والحياة"، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1987م، ص 239.

(3) - سورة الإسراء، الآية (9).

« وإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ »⁽¹⁾.

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »⁽²⁾.

« وما أرسلناك إِلَّا رحمة للعالمين »⁽³⁾.

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، و لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك »⁽⁴⁾.

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان و إيتاء ذي القربى »⁽⁵⁾

« و لا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، إعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله »⁽⁶⁾.

« و إذا قُلتُم فاعدلوا و لو كان ذا قِربى »⁽⁷⁾

« قل أمر ربي بالقسط »⁽⁸⁾.

« و أحسن كما أحسن الله إليك »⁽⁹⁾

ويقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - " أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا " ⁽¹⁰⁾.

ويتبين من خلال استقراء الحقائق السياسية والإجتماعية والتاريخية أن فساد الأخلاق في مجتمع ما يؤدي إلى عدم تطبيق الناس للقوانين ، وسيادة العنف والفساد ، مما يعني زوال أو ضعف هيبة الدولة ، فمثلا شهدت الجزائر في الثمانينات بروز آفات في السلطة : الرشوة ، وتبذير الأموال العمومية ، و تلقي العمولات عن الصفقات

(1) - سورة القلم ، الآية (4).

(2) - سورة الأحزاب ، الآية (21).

(3) - سورة الأنبياء ، الآية 107.

(4) - سورة آل عمران ، الآية 159.

(5) - سورة النحل . الآية 90.

(6) - سورة المائدة ، الآية 8.

(7) - سورة الأنعام ، الآية 152.

(8) - سورة الأعراف ، الآية 29.

(9) - سورة القصص ، الآية 77.

(10) - د/ يوسف القرضاوي ، المرجع السابق ، ص 208.

التجارية للمستوردات من الخارج في ظل إحتكار التجارة الخارجية ، وتهميش ذوي الكفاءات العلمية ، والتوظيف على أساس المحسوبية والجهوية والقراية والصداقة ، وترتبت على هذه الآفات : أحداث 5 أكتوبر 1988 ، إذ نزل الشباب إلى الشارع يحرق ويخرب الأملاك العمومية والخاصة ، كما نجم عن إلغاء الإنتخابات التشريعية في سنة 1992 سيادة العنف والفوضى ، ووفاة الآلاف من الأبرياء .